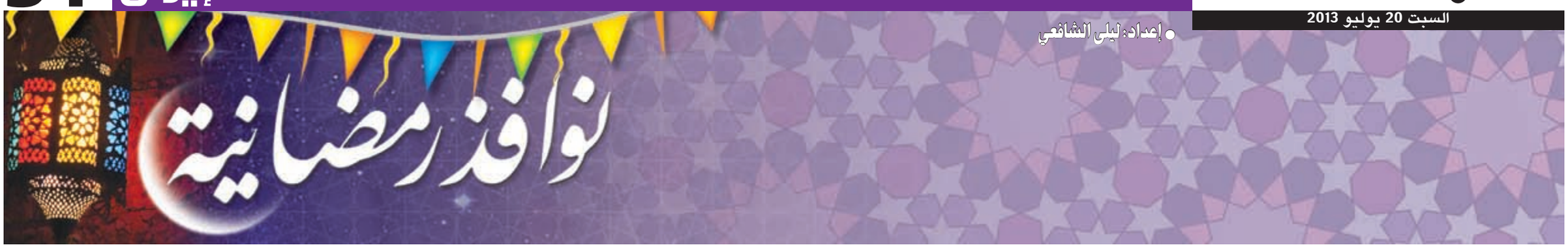


● إعداد: ليلى الشافعي

## عودة إلى الله

### توبة مالك بن دينار

يقول مالك: بدأت حياتي ضائعا سكيرا عاصيا، أظلم الناس، وآكل الحقوق، آكل الربا، أضرب الناس، أفعل المظالم، لا توجد معصية إلا وارتكبتها، شديد الفجور، يتحاشاني الناس من معصيتي يقول: في يوم من الأيام، اشتقت أن أتزوج وتكون عندي طفلة، فتزوجت وأنجبت طفلة سميتها فاطمة، أحببتها حبا شديدا، وكلما كبرت فاطمة زاد الإيمان في قلبي وقلت المعصية في قلبي، ولربما رأتني فاطمة أمسك كأسا من الخمر، فاقتربت مني فأزاحته وهي لم تكمل السنتين، وكأن الله يجعلها تفعل ذلك، وكلما كبرت فاطمة زاد الإيمان في قلبي، وكلما اقتربت من الله خطوة، ابتعدت شيئا فشيئا عن المعاصي، حتى اكتمل سن فاطمة 3 سنوات فلما أكملت الـ 3 سنوات ماتت فاطمة يقول: فانقلبت أسوأ مما كنت، ولم يكن عندي الصبر الذي عند المؤمنين ما يقويني على البلاء، فعدت أسوا مما كنت، وتلاعب بي الشيطان، حتى جاء يوما فقال لي شيطاني: لتسكرن اليوم سكرة ما سكرت مثلها من قبل فعزمت أن أسكر وعزمت أن أشرب الخمر وظللت طوال الليل أشرب وأشرب وأشرب فرأيتني تتقاذفني الأحلام، حتى رأيت تلك الرؤيا رأيتني يوم القيامة وقد أظلمت الشمس، وتحولت البحار إلى نار، وزلزلت الأرض، واجتمع الناس إلى يوم القيامة، والناس أفواج وأفواج، وأنا بين الناس وأسمع المنادي ينادي فلان ابن فلان، هلم للعرض على الجبار يقول: فأرى فلانا هذا وقد تحول وجهه إلى سواد شديد من شدة الخوف حتى سمعت المنادي ينادي باسمي، هلم للعرض على الجبار يقول: فاختفى البشر من حولي (هذا في الرؤيا) وكأن لا أحد في أرض المحشر، ثم رأيت ثعبانا عظيما شديدا قويا يجري نحوي فاتحا فمه.

فجريت أنا من شدة الخوف فوجدت رجلا عجوزا ضعيفا، فقلت: آه: أنقذني من هذا الثعبان فقال لي، يا بني أنا ضعيف لا أستطيع ولكن إجر في هذه الناحية لعلك تنجو، فجريت حيث أشار لي والثعبان خلفي ووجدت النار تلقاء وجهي، فقلت: أأهرب من الثعبان لأسقط في النار فعدت مسرعا أجري والثعبان يقترب فعدت للرجل الضعيف وقلت له: بالله عليك أنجدني أنقذني، فبكى رأفة بحالي، وقال: أنا ضعيف كما ترى لا أستطيع فعل شيء ولكن إجر تجاه ذلك الجبل لعلك تنجو فجريت للجبل والثعبان سيخطفني فرأيت على الجبل أطفالا صغارا فسمعت الأطفال كلهم يصرخون: يا فاطمة أدركي أباك أدركي أباك يقول: فعلمت أنها ابنتي، ويقول ففرحت أن لي ابنة ماتت وعمرها 3 سنوات تنجدني من ذلك الموقف فأخذتني بيدها اليمنى.

ودفعت الثعبان بيدها اليسرى وأنا كالميت من شدة الخوف ثم جلست في حجري كما كانت تجلس في الدنيا وقالت لي يا أبت ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله يقول: يا بنيتي، أخبريني عن هذا الثعبان قالت هذا عملك السيئ أنت كبرته ونميته حتى كاد أن يأكلك، أما عرفت يا أبي أن الأعمال في الدنيا تعود مجسمة يوم القيامة؟ يقول: وذلك الرجل الضعيف: قالت ذلك العمل الصالح، أنت أضعفته وأوهنته حتى بكى لحالك لا يستطيع أن يفعل لحالك شيئا ولولا انك أنجبتني ولولا أني مت صغيرة ما كان هناك شيء ينفعك يقول: فاستيقظت من نومي وأنا أصرخ: قد آن يا رب، قد آن يا رب، نعم ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله يقول: واغتسلت وخرجت لصلاة الفجر أريد التوبة والعودة إلى الله يقول: دخلت المسجد فإذا بالإمام يقرأ نفس الآية (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) ذلك هو مالك بن دينار من أئمة التابعين هو الذي اشتهر عنه أنه كان يبكي طول الليل.

ويقول إلهي أنت وحدك الذي يعلم ساكن الجنة من ساكن النار، فأي الرجلين أنا اللهم اجعلني من سكان الجنة ولا تجعلني من سكان النار وتاب مالك بن دينار واشتهر عنه أنه كان يقف كل يوم عند باب المسجد ينادي ويقول: أيها العبد العاصي عد إلى مولاك، أيها العبد الغافل عد إلى مولاك، أيها العبد الهارب عد إلى مولاك، مولاك يناديك بالليل والنهار، يقول لك من تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، أسألك تبارك وتعالى أن ترزقنا التوبة لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين.

## الرجال مواقف

# الإمام مالك إمام دار الهجرة

يروى في فضله ومناقبه الكثير ولكن أهمها ما روي «عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة».

إنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام وهو المذهب المالكي، وصاحب كتب الصحاح في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ. يقول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

### نسبه ومولده

هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبوعبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر الحميري ثم الأصبحي المدني حليف بني تميم من قريش فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية وأعمامه هم أبو سهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر.

ولد مالك على الأصح في سنة 93هـ عام موت أنس خادم رسول الله ﷺ ونشأ في صون ورفاهية وتجمل.

### طلبه للعلم

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

### ثناء العلماء عليه

عن ابن عيينة قال: مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وعن ابن عيينة أيضا قال: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحا ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم.

روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة قال فلم أرى أحدا إلا تعرف وتنكر إلا مالكا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

### إمام دار الهجرة

روي عن أبي موسى الأشعري قال «قال رسول الله ﷺ يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة» ويروى عن ابن عينية قال كنت أقول هو سعيد بن المسيب حتى قلت كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبدالله وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة.

قال القاضي عياض هذا هو الصحيح عن سفيان رواه عنه ابن مهدي وابن معين وذؤيب بن عمامه وابن المديني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل كلهم سمع سفيان يفسره بمالك أو يقول وأظنه أو أحسبه أو أراه أو كانوا يرونه.

وذكر أبو المغيرة المخزومي أن معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم لا يجدون أعلم من عالم بالمدينة فيكون على هذا سعيد بن المسيب ثم بعده من هو من شيوخ مالك ثم مالك ثم من قام بعده بعلمه وكان أعلم أصحابه.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه والجلالة والحفظ فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب والفقهاء السبعة والقاسم وسالم وعكرمة ونافع وطبقتهم ثم زيد بن أسلم وابن شهاب وأبي الزناد ويحيي بن سعيد بن أبي عبدالرحمن وطبقتهم فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب وعبد العزيز بن الماجشون وسليمان بن بلال وفليح بن سليمان وأقرانهم فكان مالك هو المقدم فيهم على الإطلاق والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

قال أبو عبدالله الحاكم: ما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد من علماء المدينة دون مالك واعترفوا له وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا كالليث عالم أهل مصر والمغرب والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم والثوري وهو المقدم بالكوفة وشعبة عالم أهل البصرة إلى أن قال وحمل عنه قبلهم يحيى بن سعيد الأنصاري حين ولاه أبوجعفر قضاء القضاة فسأل مالكا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

يروي أبومصعب فيقول: سمعت مالكا يقول دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وقد نزل على فرش له وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي أتدري من هذا قلت لا قال هذا ابني وإنما يفزع من هيبتك ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس قلت لا والله يا أمير المؤمنين قال بلى ولكنك تكتم ثم قال والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملهنم عليه. فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة.

روي أن مالكا كان يقول ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني هل تراني موضعا لذلك سألت ربيعة وسألت يحيى بن سعيد فأمراني بذلك فقلت فلو نهوك قال كنت أنتهي لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه.

وقال خلف: دخلت عليه فقلت ما ترى فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام في مسجد قد اجتمع الناس عليه فقال لهم إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس فانصرف الناس وهم يقولون إذن ينفذ مالك ما أمره به رسول الله ﷺ ثم بكى فقمت عنه.

وروي أن المهدي قدم المدينة فبعث إلى مالك بألفي دينار أو قال بثلاثة آلاف دينار ثم أتاه الربيع بعد ذلك فقال إن أمير المؤمنين يحب أن تعادله إلى مدينة السلام فقال قال النبي ﷺ المدينة خير لهم ولو كانوا يعلمون والمال عندي على حاله.

وقدم المهدي المدينة مرة أخرى فبعث إلى مالك فأتاه فقال لهارون وموسى اسمعا منه فبعث إليه فلم يجبهما فأعلما المهدي فكلمه فقال يا أمير المؤمنين العلم يؤتى أهله فقال صدق مالك صيرا إليه فلما صارا إليه قال له مؤدبهما اقرأ علينا فقال إن أهل المدينة يقرأون على العالم كما يقرأ الصبيان على المعلم فإذا أخطأوا أفتاهم فرجعوا إلى المهدي فبعث إلى مالك فكلمه فقال سمعت ابن شهاب يقول جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال وهم يا أمير المؤمنين سعيد بن المسيب وأبوسلمة وعروة والقاسم وسالم وخارجه بن زيد وسليمان بن يسار ونافع وعبدالرحمن بن هرمز ومن بعدهم أبوالزناد وربيعة ويحيى بن سعيد وابن شهاب كل هؤلاء يقرأ عليهم ولا يقرأون فقال في هؤلاء قدوة صيروا إليه فاقرأوا عليه ففعلوا.

## روائع القصص

# قصة أصحاب الفيل

كان ملك الحبشة قد استولى على أرض اليمن، وولى عليها حاكما من الأحباش يقال له أبرهة الأشرم فأقام أبرهة الأشرم يحكم اليمن ويخضعها لسلطانه بقوة جيشه، وكان كثير من أهل اليمن إذا اقترب موسم الحج يخرجون إلى مكة ليحجوا إلى الكعبة المشرفة، ويؤدوا المناسك حسب التقاليد التي تعارف عليها الناس في الجاهلية، ورأى أبرهة خروج قوافل الحجاج فسأل عن ذلك، فقيل له: إن للعرب بيتا يعظمونه ويحجون إليه كل عام، وهو في مكة.

خطرت في ذهن أبرهة فكرة فعزم على تنفيذها، فقد أراد أن يبني كنيسة عظيمة في صنعاء، ويبالغ في بنائها وزخرفتها، ليصرف الناس عن الحج إلى الكعبة، استشار أبرهة بعض المقربين إليه فوافقوه على فكرته، وعلى الفور شرع باستقدام المهندسين والبنائين، وبدأ البناء، حتى كان بناء سامقا قويا مزخرفا جميلا وأطلق عليه أبرهة اسم القليس وقد كلفه هذا البناء مالا كثيرا وكتب أبرهة إلى ملك الحبشة يخبره بما فعل، ثم إن أبرهة أمر جنده وأعوانه أن يدعوا العرب إلى الحج إلى القليس بدلا من عناء السفر إلى الكعبة. لكن العرب حينما سمعوا ذلك استهزأوا بأبرهة وبالقليس فكيف يتركون بيت أبيهم إبراهيم عليه السلام، ليحجوا إلى كنيسة أبرهة؟

وبلغ الأمر أن أحد هؤلاء العرب تسلل إلى القليس خفية فأحدث فيه، ولطخه بالنجاسة، فلما بلغ الخبر أبرهة غضب غضبا شديدا، وأقسم أن يهدم الكعبة.

أصدر أبرهة أوامره إلى الجيش ليتجهز ويستعد للمسير إلى مكة، وأمر قادته أن يجهزوا الفيلة بالإضافة إلى الخيل والجمال، فالفيل حيوان ضخم قوي، يمكن أن يركبه عدد كبير من الجند، ويقاتلوا من فوقه بكفاءة وقوة، وحين تم الاستعداد، تقدم أبرهة وأمر الجند أن يتبعوه، وفي المسير الطويل باتجاه مكة المكرمة، كان جيش أبرهة كلما مر على قبيلة من قبائل العرب أغار عليها فنهب أموالها وأغنامها وإبلها لتكون زادا لهم في طريقهم. وكانت بعض القبائل قد سمعت بمسير أبرهة وجيشه فأخذت حذرها، وفرت من أماكنها، وبعض هذه القبائل عرضوا على أبرهة وجيشه المساعدة والإمداد، رغبة منهم في اتقاء شره.

واصل أبرهة المسير بجيشه حتى بلغ منطقة قريبة من مكة، فأقام فيها، وأرسل فرقة من جيشه فأغارت على الإبل والأغنام التي كانت ترعى بين الشعاب والجبال ورجعت بها غنيمة باردة إلى معسكر الجيش.

علم أهل مكة بالأمر، وتشاوروا فيما بينهم، ماذا يفعلون؟ لكنهم كانوا عاجزين عن مقاومة جيش الأحباش، فهم لا يملكون جيشا منظما وليسوا مدربين التدريب الكافي، كما أن عددهم قليل بالقياس إلى جيش الأحباش، وزاد من خوفهم ما سمعوه عن الفيلة التي تحمل الجنود.

كان العرب يراهنون على شيء واحد هو أن هذه الكعبة بناء مقدس، وله حرمته العظيمة، وأن العناية الإلهية ستتدخل في الوقت المناسب.

أرسل أبرهة إلى زعيم مكة عبدالمطلب بن هاشم يدعوه للقائه، فجاء عبدالمطلب، وكان رجلا مهيبا وقورا، فلما رآه أبرهة أكرمه ونزل عن عرشه حتى استقبله وجلس معه، وبدأ يسأله قائلا: ما حاجتك؟

قال عبدالمطلب: إن جندك أخذوا مني مائتي بعير، وأريد أن تردوها علي، قال أبرهة: قد كنت عظمتك حين دخلت، ولكنني الآن زهدت فيك، قال عبدالمطلب: ولم أيها الملك، قال: لقد أتيت لأهدم هذا البيت الذي هو دينك ودين آبائك وأجدادك، وها أنت لا تكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير، قال عبدالمطلب: أما الإبل فأنا ربها وصاحبها وللبيت رب يحميه.

أمر أبرهة برد الإبل على عبدالمطلب، فلما استرد إبله رجع إلى مكة، وأمر أهلها أن يتفرقوا في الشعاب والجبال ليأمنوا على أنفسهم مما قد يفعله جيش الأحباش، ثم وقف عبدالمطلب على باب الكعبة وأمسك بحلقته وأخذ يدعو قائلا:

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

وفي الصباح تهيأ أبرهة وجنده ليغيروا على مكة ويهدموا الكعبة، وبينما هم كذلك إذ برك الفيل الأكبر على الأرض، وكانت بقية الفيلة لا تمشي إلا وراءه، فحاول الجند أن ينهضوه ويوجهوه نحو مكة، لكنه أبى، فلما وجهوه نحو اليمن قام يهرول، ثم وجهوه ثانية نحو مكة فبرك على الأرض. وانشغل الجند بهذا الفيل، وفي أثناء ذلك أرسل الله سبحانه عليهم طيرا أبابيل، تأتي مسرعة فتمر من فوقهم، ومعها حجارة صغيرة تلقيها عليهم، فكلما أصابت واحدا منهم هلك وسقط على الأرض ميتا، فلما رأى الجند ذلك ولوا هاربين لا يلوون على شيء، وظلت الطير تلاحقهم حتى قتل كثير منهم، وأصيب أبرهة فالتف حوله بعض الجنود، وحملوه على دابة، والألم يشتد عليه، فلما وصل إلى صنعاء مات.

وهكذا رجع جيش الأحباش خاسئا ذليلا مشردا، بعد أن خسر قائده وأكثر جنده، ورجع أهل مكة إلى كعبتهم يطوفون حولها بإجلال وتعظيم مستشعرين هذه النعمة العظيمة حيث رد الله عنهم كيد هذا العدو الذي أراد هدم كعبتهم واتخذ العرب من ذلك العام تاريخا يؤرخون به، لأن حادثة الفيل من أعظم وأعجب الحوادث التي رآها العرب في حياتهم.

## رسائل الرسول

### كتاب رسول الله ﷺ إلى جيفر وعبدٍ ابني الجلندي ملكي عُمان (1ـ2)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأعلم أرضا يقال لها عُمان ينضح بناحيتها البحر، لو أتاهم رسولي ما رموه بسهم ولا بحجر».

حامل الكتاب:

عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي.

أرسلته قريش الى النجاشي ليسلم إليهم من عنده من المسلمين، جعفر بن أبي طالب ومن معه فلم يفعل وقال له النجاشي: يا عمرو، وكيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول حقا.

قال عمرو رضي الله عنه: أنت تقول ذلك؟

قال النجاشي: إي والله، فأطعني.

فخرج عمرو مهاجرا الى رسول الله ﷺ عام خيبر وقيل أسلم عند النجاشي، وهاجر الى رسول الله ﷺ مع خالد بن الوليد، وعثمان بن أبي طلحة العبدري رضي الله عنهم جميعا.

استعمله رسول الله ﷺ على عُمان فلم يزل عليها الى ان توفي رسول الله ﷺ.

سيّره أبوبكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الشام، فشهد فتوحه، وولي فلسطين لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم سيره عمر في جيش الى مصر ففتحها، ولم يزل واليا عليها الى ان توفي عمر رضي الله عنه، فأمّره عثمان بن عفان رضي الله عنه عليها 4 سنوات، ثم عزله عنها، فاعتزل عمرو بن العاص رضي الله عنه بفلسطين، وكان يأتي المدينة أحيانا، وبعد مقتل عثمان انحاز الى معاوية رضي الله عنه وعاضده وشهد معه صفين واستعمله معاوية على مصر الى ان مات سنة ثلاث وأربعين هجرية.

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: خرجت حتى انتهيت الى عُمان فلما قدمتها عمدت الى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خُلقا فقلت: إني رسول رسول الله إليك وإلى أخيك.

فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال لي: وما يدعو إليه؟

قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبد من دونه، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله.

قال: يا عمرو، إنك أنت سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة.

قال عمرو: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال: فمتى تبعته؟

عمرو: قريبا.

قال: وأين كان إسلامك؟

عمرو: عند النجاشي، وقد أسلم النجاشي.

قال: فكيف صنع قومه بمُلكه؟

عمرو: أقروه واتبعوه.

قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟

عمرو: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في الرجل أفضح من الكذب.

عمرو: ما كذبت وما نستحله في ديننا.

قال عبد بن الجلندي لعمرو ما أرى هرقل علم بالإسلام النجاشي.

● الشيخ سيد الرفاعي